المقطر الأول

مسرحية في ستة فصول

١٨٨٦

الشخصيات

فلاح

شيطان

إبليس

شيطان الموظفين

شيطان الفلاحين

العامل

الجار

المرأة

فتاة

شيخ

الأم

الشيخ الأول

الشيخ الثاني

الشيخ الثالث

الشيخ الرابع

الفصل الأول

حقـــلٌ

المشهد – ١ –

فلاح

الفلاح يَحرُثُ الأرضَ وينظر إلى السماء : ها قد انتصف النهار ! وحان وقتُ حَلِّ الدابّة . هُو ، دي ! شُدّي ! أَعْياك التعبُ ، يا مسكينة ! اصبري ، سنستريح ؛ شدّي هذه المرة لآخرِ تلْمٍ ، وبعد ذلك سنأكل ... ما أحسنَ هذه الفكرة وهي أنني حماتُ معي لقمةَ خبز . أنا في غنىً عن العودة إلى البيت . سآكل هنا ، قرب البئر ، وسأَغْفو قليلا ، بينما ترعى الفرسُ شيئاً من العشب ، ثم أستأنفُ بعد ذلك عملي ، بعون الله . الحمد لله ، سأنهي عملي في ساعة مبكّرة .

المشهد – ٢ –

« الفلاح . يظهر شيطانٌ في دغل » .

الشيطان : ما أطْيَبَه ! إنه يَبْتهل إلى الله دائماً . انتظرْ قليلاً ، ستَبْتهل إلى الشيطان أيضاً . . . لِنأخذْ أولاً لقمةَ خبزه .

سيشرع في البحث عنها ، ثم ينال منه الجوعُ ، وسينتهي به الأمرُ إلى التجديف وإلى الابتهال إلى الشيطان !

(يختطف قطعة الخبز ويحملها إلى خلف الدغل حيث يجلس ليتابع من هناك ما سيجري) .

الفلاح ، يحل أحزمة عُدّة الفرس : باركني ، يا ربي ! (يُخرج فرسه من العريش ويُطلقه ويتّجه إلى الموضع الذي وضعَ فيه قفطانه) : آه ! أنا شديدُ الجوع . أعطتني زوجتي قطعةً كبيرة من الخبز ، سآكلها كلها . (يقترب من قفطانه (. ليست هنا ! لا بدّ أنني خبّأتُها تحت القفطان . (يرفع قفطانه) . وهي ليست هنا أيضاً ! هذا غير مقبول .

(يأخذ قفطانه وينفضه) .

الشيطان ، المختبىء خلف الدغل : ابحثْ ، ابحث ! انظرْ ، هذه هي ! . . .

(يجلس على قطعة الخبز) .

الفلاح ، يرفع حطبة وينفض قفطانه مرةً أخرى : هذا غير مقبول . لم يمرّ أحدٌ من هنا واختفتْ خبزتي ! لو أن الطيور أكلتْها لبقيَ منها فتاتٌ ! . . . لم أر أحداً . لا بدّ أن يكون قد أخذها أحدٌ مع ذلك .

الشيطان ، ينهض : صه ! ها هو يوشك أن يبتهل إلي .

الفلاح : باه ! ليكنْ . . . لن أموت من الجوع . أُخذتْ خُبزتي ؛ حسناً ! ليأكلْها مَنْ أخذها على صحتي ، وجزاه الله خيراً ! . . .

الشيطان ، يبصق من الغيظ : آه ! يا له من فلاحٍ لعين ! لم يَبْقَ عليه إلا أن يُجدّف ، ويقول « جزاه الله خيراً » . من المؤكد أنني لا يمكن أن أجني فائدة منه .

(يضطجع الفلاح على الأرض ويرسم علامة الصليب وينام) .

الشيطان ، خارجاً من خلف الدغل : لم أصلْ إلى نتيجة . ورئيسي إبليس يقول لي دائماً : « أنتَ لا ترسلُ لي إلى جهنم إلا القليل جداً من الفلاحين . في كل يوم يصلني جمهورٌ من التجار ، والإقطاعيين ، والناس من كل الأوضاع ، لكنك لا تكاد ترسلُ أحداً من الفلاحين » . وهو طيبّ القلب أيضاً ! لا أستطيع أن أدنو منهم ، فكيف أصطفي منهم أصدقاء ؟ هل يمكن أن نبتكر شيئاً أدهى مكراً من سرقة قطعة الخبز الوحيدة لهذا الفلاح ؟ ومع ذلك فلم يَفُهْ بأي تجديف . لا أدري ما الذي سأبتكره بعد ذلك . سأذهب لأقدّم تقريري لرئيسي .

(يختفي في باطن الأرض) .

ستار

الفصل الثاني

جهنم

« يشغل ابليس المقعد الرئيسي . عند قائمة العرش يجلس الشيطان الكاتب وأمامه طاولة عليها محبرة . على الجانبين ، يقف الحرسُ . إلى اليمين خمسة شياطين في مظاهر شتى إلى اليسار قرب الباب : الحاجب . يقف أمام الرئيس شيطان أنيق الملبس » .

الشيطان الأنيق الملبس : في السنوات الثلاث المنصرمة ، تسلّمت ما مجموعُه ٢٢٠٠٠٥ مئتان وعشرون ألفاً وخمسة أشخاص . وكلهم تحت سلطتي حالياً .

ابليس : حسنٌ جداً . شكراً . مُرَّ .

(يمرّ الشيطان المتميزّ اللباس إلى اليمين) .

ابليس ، للكاتب : تعبتُ . هل بقي كثيرٌ من القضايا ؟ ممّنْ وصلتْنا التقارير وممّنْ لم تصلْ ؟

الكاتب ، يعدّ على أصابعه ، مشيراً إلى الشياطين الواقفين إلى اليمين والذين ينحنون كل بدوره ، عند تفقّد أسمائهم : حَضَرَ شيطان الإقطاعيين وأعلن عن قَبْض ٨٣٦ شخصاً : وشيطان القضاة ٣٤٢٣ ؛ وشيطان النساء الذي وصل تقريرهُ

في هذه اللحظة وهو يُعلن عن ١٨٦٣١٥ امرأة متزوجة و ١٧٤٣٨ بنتاً . بقي علينا أن نستمع إلى اثنين فقط : شيطان الموظفين وشيطان الفلاحين . . المجموع في هذه الساعة هو : ٢١٧٦٥٥ .

ابليس : يمكننا إذن أن ننتهي من ذلك بسرعة . (للحاجب) أَدْخلْه . (يدخل شيطان الموظفين وينحني أمام ابليس) . حسناً . ما عندك . كيف تسيرُ أمورُك ؟

شيطان الموظفين : أموري ! (يفرك يديه وهو يضحك) . بيضاء كالسناج ! غنيمةٌ لا أذكر أنني وقعْتُ على مثلها منذ خَلْقِ العالم .

ابليس : آه ! آه ! قَبَضْتَ على كثيرين ؟

شيطان الموظفين : اوه ! ليس الرقم هو المهم ، وهو غير مرتفع ، ١٣٥٠ لا أكثر ، لكنْ ما أجْسرهم ! أشخاص قادرون على أن يقوموا بمهمة الشياطين . وهم أمهرُ منّا في تعذيب الناس . وقد علّمتُهم طرائق عملية جديدة .

ابليس : طرائق عملية جديدة ؟

شيطان الموظفين : ها هي : كان كتّابُ المحاكم قديماً يتّفقون مع القضاة من أجل سفالاتهم . وقد استدرجتُهم ليستقلوا بأنفسهم ، فلا يدافعون إلا عَمّنْ يدفع مالاً أكثر . لو رأيتَ حميّتَهم ! إنهم يعثرون على الوسيلة التي يكونون

نافعين بها حيث يمكن الاستغناء عنهم بسهولة . أكرّر لك : إنهم يعذّبون البشر أفضل من الشياطين .

ابليس : سأرى ذلك . (يمر شيطان الموظفين إلى اليمين . إبليس الحاجب) . أدْخل الأخير .

(يدخل شيطانُ الفلاحين وهو يحمل قطعةً من رغيف ، ينحني أمام ابليس حتى الأرض) .

شيطان الفلاحين: ليس بوسعي أن أحيا هكذا . اعهدْ إليّ بمهمّات أخرى .

ابليس : أيّة مهمات ؟ بمَ تَهْذي ؟ اقتربْ وتكلّمْ بوضوح أكبر . . . هات تقريرك . هل كسبتَ كثيراً من الأصدقاء بين الفلاحين ؟

شيطان الفلاحين ، باكياً : ولا واحد .

ابليس : ماذا ؟ ... ولا واحد ! تقول ، ولا واحد ؟ ... وماذا فعلتَ طوال هذا الوقت ؟ تسكّعْتَ . . .

شيطان الفلاحين ، متباكياً : لا ، لم أتسكّعْ ... وتعذّبتُ عذابَ الكلاب. كل ذلك بلا جدوى . . . لم أستطع أن أحصل على شيء ... انظرْ ، لقد اختطفتُ من أحد الفلاحين ، وبحضوره ، خبزتَه الوحيدة . أتظنُّ أنه أقسم بالشياطين ؟ أبداً، لا ... تمنّى العافيةَ لمن يأكل غداءه .

ابليس : ماذا ؟ ماذا تحكي ؟ . . . امتخطْ وتكلّم بوضوح . فلسنا نفهم شيئاً من غمغمتكَ .

شيطان الفلاحين: القضيّةُ أن أحد الفلاحين كان يحرث . وكنتُ أعلمُ أنه يملك قطعةً من الخبز غداءً له ، لا غير . فسرقتُ له قطعته . كان ينبغي بعد ذلك أن يستشيط غضباً . آه ! كل ما قاله هو : « لقد أخذوا مني خُبزتي ؛ جزَى الله خيراً مَنْ سيأكلها . وها أنا أحمل إليك الخبزةَ . خذها ، ها هي ذي .

ابليس : طيّب ! والآخرون ؟

شيطان الفلاحين: الآخرون ! لكنهم يتشابهون جميعاً . لا سبيل إلى قَبْض واحد منهم .

ابليس : كيف تجرؤ أن تَمثل أمامي ويداك فارغتان ! وفوق ذلك ، جئت تنشر الوباء بهذه الفضلة القذرة من الطعام . ما هذا ! أتراكَ تهزأ بي ؟ أتظنّ أننا سنطعمك في جهنم من أجل سواد عينيك ؟ الآخرون يُتْعِبون أنفسهم ويكدّون . انظرْ إليهم (يشير إلى الشياطين) . هذا كسبَ لي ١٠٠٠٠ نفس ؛ وهذا ٢٠٠٠٠ ألف ؛ الآخر ٢٠٠٠٠٠ ؛ أما أنت ، فانك تأتيني وأنت غير مسرور من نفسك ، وتُخرجُ لي فضلةً من الخبز قديمةً ، وتَرْوي لي هذا الهُراء ! لستَ سوى ثرثار وكسول . الفلاحون يَسْخرون منك ويُفْلتون من يديك . انتظرْ قليلا ، يا صديقي ، سأفتّح لك عينيك .

شيطان الفلاحين: لا تَقْتلْني ! دعني اتكلّم . . . الآخرون جميعاً

مهمتُهم سهلةً مع الإقطاعيين والتجار والنساء . لاشيء أيسر : فمن أجل قبّعة من الفرو ، ومن أجل قطعة أرض ينخدع الإقطاعي وينْقاد إلى آخر الدنيا ؛ والشيء نفسه مع التاجر : أَرِهِ المال فتستطيع أن تقوده وكأنما تقوده برسن دون أن تخشى إفلاته . أما النساءُ فكل واحد يعلم أننا نَفْعل بهن ما نشاء بالكلام الحلو وبالحلِيّ . لكنّ الأمرَ مع الفلاحين مختلفٌ . إنهم يَشْتغلون من الصبح إلى المساء ، بل وفي طائفةٍ من الليل ، ولا يَفُوتُهم أبداً أن يبتهلوا إلى الله ، قبل الشروع بأي عمل . فما الوسيلةُ إلى التأثير في هؤلاء الناس . يا أبي ، أَعْفني من الاهتمام بالفلاحين . إني أخضّ دمي في ذلك ، وأَجرُّ على نفسي غضبَك .

ابليس : أنت تكذب ، أيها الخامل ! دَعْ الآخرين وشأْنَهم . وإذا اقتنصوا التجارَ والإقطاعيين والنساء فلأنّهم يَعْرفون كيف يداهنونهم ، لأنهم يبتكرون أبداً حيلاً جديدة . انظرْ ، إن المكلّف بالموظفين ابتكر منذ قليل وسيلةً جديدة كلّ الجدّة — ابتكرْ أنت شيئاً جديداً بدلاً من أن تَفْخر بخبزةٍ تافهة سرقْتها . — يا لهذه المأثرة ! — انصبْ حبائلك حول الفلاحين فسينتهون بالوقوع في الفخ . أنتَ تقضي وقتكَ كله في الثرثرة ، وبالطبع ، إنهم يستفيدون من ذلك ، ويستردّون قواهم . لم يعودوا يأسفون على خبزهم ! وإذا أخذوا يتبنّون هذه العادات ويحوّلون إليها نساءَهم ، فسنَفْقدهم تماماً . هيّا ، ابتكرْ لي شيئاً ! اجتهدْ في ذلك ما وسعكَ الاجتهادُ !

شيطان الفلاحين: لاهمَّ لي سوى الابتكار . ضَعْ أحداً مكاني . لم أعدْ قادراً على شيء . . .

ابليس بغضب : لم تعدْ قادراً ! لعلي أنا الذي سيشتغل مكانك ؟

شيطان الفلاحين: لا أستطيع .

ابليس : لا تستطيع ! انتظرْ ! هيه ! خذوا السياط واجلدوه .

(يمسك الحراس بالشيطان ويجلدونه) .

شيطان الفلاحين: آي ! آي آي !

ابليس : هل وجدتَ ؟

شيطان الفلاحين: آي ! آي ! لا أستطيع أن أجد شيئاً ؟

ابليس : اجلدوا ! اجلدوا ! هل وجدت ؟

شيطان الفلاحين: وجدتُ ، وجدتُ !

ابليس : آه ! قلْ لنا ماذا وجدتَ !

شيطان الفلاحين: وجدت وسيلةً أكيدةً لقَبْضهم كلهم . أعطني فقط الأذنَ بأن أشتغل بالأجرة عاملاً عند أحد الفلاحين . لا أستطيع أن أقول لك أكثر من ذلك الآن .

ابليس : ليكنْ . لكن لا تَنْسَ أنك إذا لم تَسْتحقّ قوتك في ظرف ثلاث سنوات فسأسلخ لكَ جلدَكَ .

شيطان الفلاحين: في ظرف ثلاث سنوات ، سيكونون كلهم لي .

ستار

الفصل الثالث

« مخزن للغلال ؛ طنابر مملوءة قمحا » .

المشهد – ١ –

« الشيطان في ثياب عامل . يملأ مكيالاً من القمح المأخوذ من طنبر . ثم يحمله الفلاحُ إلى مخزن الغلال » .

العامل : هذا سابعُ مكيال .

الفلاح : وكم « تشيتفيرتا(١) » ؟

العامل : بعد أن نظر إلى العلامات الموضوعة على الباب : ستة وعشرون . ومع هذا المكيال تصبح سبعة وعشرين .

الفلاح : لن يدخل القمحُ كله . امتلأَ المخزنُ .

العامل : سوِّه جيداً .

الفلاح : هذا ما سأفعله .

(يأخذ المكيال) .

---

(١) تشيتفيرت : مكيال روس يساوي ٢,٠٩٧ هيكتولتر .

المشهد – ٢ –

« العامل ؛ يبقى وحده ، ويرفع قبعته فنشاهد قَرنَيْه »

« سينشغلُ فترةً ، وسأستغلّ غيابه لأقوّم ، قرنيَّ قليلاً . (يقوم قرنيه) . وأنزع حذائي ، وذلك مالا أستطيع أن أفعله أمامه . (يسحب جزمته فترى قدماه الظلفاوان . يجلس على العتبة) . هذه السنة الثالثة الجارية ، وعمّا قريب لا بدّ له من أن يردّ لي حساباتي . . . هو لا يجد مكاناً يخزن فيه قمحه ؛ بقي أن نعلّمه آخر حيلة في طريقتي . وبعد ذلك ، قد يأتي الرئيسُ ذاتُه ، وسأُريه شيئاً ما . سيدفع ثمنها غالياً ، قصة الخبزة .

المشهد – ٣

« يدخل الجار ؛ يخفي العامل قرنيه » .

الجار : طاب يومُك .

العامل : طاب يومك .

الجار : أين معلّمُكَ ؟

العامل : إنه يكدّس القمح في مخزن الغلال . لم نتمكّنْ من إدخاله كله .

الجار : حظّه عظيم ! ألاّ يجد مكانا لمحصوله ! هذا هو الصيف الثاني الذي يُدهشنا فيه بمحصوله من القمح . كأن هناك مَنْ يُعْلمه مسبقاً . في السنة الماضية ، في الجفاف ، بذر

قَمْحه في الأراضي المنخفضة . لم يحصد أحدٌ في البلد شيئاً ، وملأتم أنتم مخزناً للغلال بكامله . في هذه السنة ، سنة المطر : زرع هو ، الشاطر ، في الأراضي العالية ، وبينما تعفّن الزرعُ وهو قائم في كل مكان آخر ، كان القمح وفيراً عندكم أنتم . وأيّ قمحٍ !

(ينثر بيده حفنةً من القمح ويمضمض بعض الحبّات) .

المشهد — ٤ —

« الشخصان ثم الفلاح » .

الفلاح ، الذي يخرج من المخزن وهو يحمل مكيالاً فارغاً : طاب يومُك ، يا رفيق .

الجار : طاب يومُك . كنتُ أسألُ عاملَك كيف استطعتم أن تتنبّؤا بالمكان الملائم للبذار . كل الناس يَغْبطونك . جاءك الكثيرُ من القمح ، الكثير من القمح حتى إنك لن تستطيع أن تأكله كلّه في عشر سنوات .

الفلاح : كل ذلك ، فهو بفضل بوناب . (يشير إلى عامله) . إنه ذو ذكاء وحذاقة . في السنة الماضية ، أرسلتُه يحرثُ ، وحده . وعندما رأيت أنه حرَث لي السبخةَ شتمتُه ، صدّقْني . إيه ! ... ومع ذلك أقنعني بأن نزرع هناك ، فزرعْنا . وكانت النتيجة جيدة . وهذه المرة أيضاً كان تنبّؤه صحيحاً : بذر في الأراضي العالية .

الجار : كأنه يعرف الطقسَ في السنة كلها . . . آه ! ما أعظم محصولَكَ . (صمت) . قلْ لي ، جئتُ أطلب منك نصف مكيال . فقد نفدتْ مؤونتي . وسأردّها لك في السنة القادمة .

الفلاح : خذْ ، خذْ .

العامل : بصوت خافت للفلاح ، وهو يدفعه . لا تُعْطهِ .

الفلاح للجار : لا حاجةَ إلى الشروط . تقدّمْ ، خذْ .

الجار : شكراً ، سأذهب لآتي بكيسٍ .

العامل ، بينه وبين نفسه : لم يفقد بعد هَوسَه القديم بالعطاء ؛ وهو لا يتبع نصائحي كلها . باه ! بعد بعض الوقت سيفقد هذه العادة .

(يخرج الجار) .

المشهد — ٥ —

« الفلاح والعامل »

الفلاح ، جالساً على العتبة : ولمَ لا نُعطي مثل هذا الرجل الطيب ؟

العامل : باه ! إن كان يسرّك . . . فأعطِ ؛ لكنك لن تستردّ حبةً ممّا تُعطي . العطاء سهل ، مثل التدحرج عن الجبل ؛ لكن الاسترجاع صعبٌ ، مثل صعود الجبل ، كما يقول الكبار .

الفلاح : دَعْني وشأني . فعندي الكثير من القمح . . .

العامل : طيب ! . . . وبعد ذلك ؟ . . .

الفلاح : عندي ما يكفيني ، لا للموسم القادم فقط ، بل لسنتين بدءاً من اليوم . عندي مالا أعرف كيف أفعلُ به .

العامل : لا تعرف كيف تفعل به ؟ لكنني سأصنع لك بهذا القمح ، بقمحك ، شيئاً ثميناً ، يُفرحك طوال حياتك .

الفلاح : وما ذاك ؟

العامل : شرابٌ ، شرابٌ يمنحك القوةَ إذا أحسستَ بالضعف ، ويمنحك الشهيّةَ إذا أحسستَ بالشبع ، ويمنحك النوم إذا عجزتَ عن النوم ، ويمنحك الإقدام إذا أحسست بانحطاط قواك . هذا هو الشراب الذي سأصنعه لكَ .

الفلاح : أنتَ تُضحكني .

العامل : على راحتك . لم تصدّقني عندما نصحتُك في المرة الأولى أن تزرع في السبخة ، وفي المرة الثانية أن تزرع في الأراضي العالية . وقد رأيتَ النتائج مع ذلك . وسترى أيضاً بالنسبة إلى هذا الشراب .

الفلاح : لكن بماذا ستصنعُه ؟

العامل : بهذا القمح نفسه .

الفلاح : ولن يكون ذلك إثماً .

العامل : يا لها من فكرة ! أي إثم تريد أن يكون ذلك ؟ كل شيء مُعطىً للإنسانَ كي يتمتّع به .

الفلاح : قلْ لي ، يا بوتاب ، من أين جاءك هذا العامُ الوفير ؟ إني ألاحظُك ، أنت مُكبّ دائماً على عملك بعيدٌ عن الادعاء ؛ فمنذ سنتين وأنت تعمل عندي لم يتسنَّ لك نزع حذائك ، مع ذلك فأنت تعلم كل شيء . أين تعلّمْتَ ذلك كله .

العامل : اوه ! تجوّلتُ قليلاً في أماكن شتّى .

الفلاح : أنت تقول إذن : إن هذا الشراب سيمنحني القوةَ ؟

العامل : سترى . ليس له إلا النتائج الحسنة .

الفلاح : وكيف ستَصْنعُه ؟

العامل : ليس ذلك صعباً . يكفي أن تعلم . أنا بحاجة فقط إلى قدرٍ ووعاءين من المعدن المسبوك .

الفلاح : أهو لذيذُ الطعم .

العامل : حلوٌ كالعسل . إذا ما ذُقْتَه لم تستطعْ الاستغناءَ عنه .

الفلاح : هيّا ! سأسأل الجار إن كان قدرُه ما يزال عنده . يجب أن نرى ذلك .

ستار

الفصل الرابع

« في مخزن الحبوب . في الوسط ، وُضع على النار قدرٌ أُغلقَ إغلاقاً محكَماً ، يتصل بوعاء من المعدن المسبوك ، له حنفيّة » .

المشهد — ١ —

الفلاح والعامل

العامل ، يمسك بكأس تحت الحنفيّة ويذوقُ ماء الحياة : يا معلّم ، صار الشراب جاهزاً .

الفلاح ، الذي قرفص وأخذ ينظر : شيءٌ عجيب ! عجينتُكَ تُعطي ماءً . لعلك تصبّ الماءَ أولاً ؟

العامل : ليس هذا ماءً . هذا هو الشراب نفسه .

الفلاح : كيف ؟ هو صافٍ ؟ ظننتُ أنْ سيكون له لونُ الجعة ؛ كأنه ماءٌ عذب .

العامل : لكنْ ، أيّة رائحة هذه !

الفلاح ، ينشق الرائحة : هيه ! أيّ عطرٍ هذا ! دعني أذقْهُ .

(يهم بأخذ الكأس من بين يدي العامل) .

العامل : انتظرْ ، ستَقلبُ كل شيء . (يُغلق الحنفيّة ، يشرب ، ويصفق بلسانه) . هي ناجحة . خذْ ، اشرب !

الفلاح ، يشرب جرعةً أولاً ، ثم جرعةً أخرى ؛ وعندما يشرب كل ما في الكأس يناوله إياها : هات أيضاً ، كان ما فيه أقلَّ بكثير من أن أحسَّ مذاقه .

العامل، ضاحكاً: استستغتَه ، أليس كذلك ؟

(يملأ له كأسه) .

الفلاح ، يشرب : ليس رديئاً ، هذا الابتكار . . . يجب أن أنادي المرأةَ . . . يا مارفا ! صبَّ لي قليلاً ! صار جاهزاً للشرب . . . تعالي ، تعالي .

المشهد — ٢ —

« الفلاح والعامل والمرأةُ وفتاة » .

المرأة : ماذا ؟ مالكَ تصرخُ هكذا ؟

الفلاح : ذوقي شيئاً ممّا صنعْناه هنا . (يمدّ إليها الكأس) شمّي لي هذا .

المرأة ، **بعد أن شمّت** : عجباً ، عجباً !

الفلاح : اشربي .

المرأة : ألا يؤذيني هذا ؟

الفلاح : اشربي ، يا حمقاء .

المرأة ، تشرب : هيه ! نعم ؛ هو لذيذ .

الفلاح : وقد ثملَ قليلاً . صدّقْتُكِ أنه لذيذ . لكن انتظري ، سترين . بوتاب يقول إنه يزيل تعبَ الجسد . وبه يُصبح الشبابُ شيوخاً . . . لا ! بمَ أهذي ؟ قصدتُ أن الشيوخ يصبحون شباباً . . . لم أشرب سوى كأسين صغيرين ، أليس صحيحاً ؟ . . . وأحسّ بقواي تعود إليّ . (يبدو عليه الافتخار) . أرأيتِ ؟ ما رأيك ! سنشربُ منه ، نحن الاثنين ، وسنعود شابين . هيه ! هيه ! مارفا . . .

(يقبّلها)

المرأة : ما هذا ، ما الذي دهاك ؟ أدار لكَ الشرابُ رأسَكَ .

الفلاح : صدقتِ ... آه ! كنتِ تتّهميننا ، أنا وبوتاب ، بتضييع القمح . انظري ماذا فعلنا منه . لن تَشْكي الآن ؟ أهو لذيذ ؟

المرأة : لا شك أنه لذيذ ، بما أنه يُعيد الشباب إلى الشيوخ ... ها أنتَ الآن فتى شديد القوى . . . والواقع أنني أحسّ بالمرح يَمْلؤني . آه ! لنُغَنّ ! آه ! آه ! آه ! ...

(تُغنّي) .

الفلاح : انظري ، انظري ! كلّنا شباب ، كلنا فرحون .

المرأة : يجب أن تُحْضرَ أمّك . فهي دائماً متذمّرةٌ ، متكدّرةُ المزاج ؛ سنغيّرها لك . سيردّ لها الشرابُ شبابها وستغدو ، من غير شك ، أكثر لطفاً .

الفلاح : وقد سكر تماماً : صحيح ، نادي أمي . (للفتاة) . هيه ! هيه ! ماشكا ! اركضي وأحضري الجدّة . . . أحضري العجوز أيضاً . . . أنا آمره بالنزول عن الموقد ، وماذا يصنع عليه ؟ سنردُّه شاباً . هيا . اسرعي . كان ينبغي أن تكوني هناك . اجري !

(تخرج الفتاةَ راكضةً) .

الفلاح للمرأة : ما رأيكِ ؟ أتريدين كأساً أخرى ؟ (العامل يملأ الكأس ويعطيها الفلاح) . مفعول الشراب يبدأ أولاً من فوق . . . من اللسان الذي يعود إليه شبابُه ،ثم يأتي إلى اليدين . . . وها هو يصل إلى القدمين الآن . . . نعم ، أحسّ أن قدميّ تَستعيدان نشاطهما . انظري ، هاهما تنطلقان .

(يرقص) .

المرأة ، بعد أن شربتْ بدورها : اعزفْ لنا ، يا معلم بوتاب ، لحناً راقصاً .

(يتناول بوتاب البلاليكا ويعزف . يرقص الفلاحُ وامرأتُه . يعزف العامل في مقدّمة المسرح ، ويضحك وهو يغمز بعينيه ، وفجأةً يقف عن العزف ، لكن الفلاح وامرأته يتابعان رقصهما) .

العامل : ستدفع لي غالياً ثَمنَ كسرة الخبز !ها إن هذين المستهترينْ في الحالة التي أريدها لهما . وسيظلان في قبضتي زمناً طويلاً . فَلْيأْتِ ، ذلك الرئيس العظيم !

المشهد – ٣ –

« الأشخاص أنفسهم ، تدخل الأم العجوز ، غضّة الإهاب ، وشيخ محاتّل بالبياض » .

الشيخ : ما هذا ! جُننْتم ؟ الناس يشتغلون وأنتم ترقصون!

المرأة ، تغني وهي ترقص وتصفّق بيديها : أُوهي ! أوهي ! أوهي ! أذنبتُ أمام الله . الله وحده بلا ذنب !

الأم : كيف ، يا حقيرة ! ... ترقصين بدلاً من أن تحضّري الفرن !

الفلاح : كفّي عن ذلك ، يا أمي ، ليتك تعرفين ما الذي أصابنا ! ... عندنا الوسيلة التي تردّ الشيوخ شباباً . خذي ، اشربي هذا فقط .

(يمدّ إليها كأساً من ماء الحياة) .

الأم : في البئر ماءٌ كثير . (تشمّ ماء الحياة) . ماذا دسستمْ فيه ؟ . . . ما هذه الرائحة الغريبة !

الفلاح والمرأة : لكنْ اشربي .

الأم ، تذوق ماء الحياة : عجباً ، عجباً ! . . . لن يقتلني هذا ؟ . بالتأكيد ؟

المرأة : على العكس ، سيُنْعشك هذا . ستعودين شابةً . . . تماماً .

الأم : حقاً ؟ (تشرب) . آه ! ... هذا لذيذ . . . ألذّ من الجعة. وأنتَ ، أيها الأب العزيز ، ذُقْهُ أنتَ أيضاً .

(الشيخ الجالس يهزّ رأسه) .

العامل : دعوه . . . لكن صبّوا للجدّة كأساً أخرى .

(يقدّم لها كأساً) .

الأم : أخاف أن يؤذيني هذا . . . أي ! لأنه يُحرق ! . . ومع ذلك فهو يَستهويني . . .

المرأة : اشربي ... ستحسّين كيف يسيل في عروقكِ .

الأم : آه ! لنشربْ !

(تشرب)

المرأة : ماذا ! هل نزل إلى قدميكِ ؟

الأم : ها هو ينزل . . . نعم ،ها هو . . . آه ! كم أحسّ أنني خفيفة . . . في الواقع ! لنشربْ قطرةً أيضاً . (تشرب) . آه ! الحقّ أنني غدوتُ شابةً . . .

الفلاح : هذا ما قلتُه لكِ .

الأم : ليتَ رَجُلي الذي غَاب يراني مرةً أخرى كما كنتُ في أيام شبابي !

(العامل يعزف ، الفلاح وزوجته يعزفان) .

الأم ، تتقدّم إلى وسط المسرح : ما هذه الطريقة في الرقص ؟

سأريكم أنا ، كيف ترقصون . (ترقص) . ثم هكذا . . .
وهكذا . . . أرأيتم ؟

(يذهب الشيخ ويفتح حنفية القدر . يسيل ماءُ الحياة على الأرض . وما أن يرى الفلاحُ ذلك حتى يهجم على الشيخ) .

الفلاح : ماذا تفعلُ أيها اللص ! تُضيع كلَّ هذه الثروة ! أيها الغبي العجوز . (يدفعه ويضع قدحاً تحت الحنفية) . لقد سال كلُّ شيء .

الشيخ : هذه ثروة ؟ هذا هو الهلاكُ الأبدي . إن الله أطلع قمحكَ ليكون غذاءً لكَ ولقريبك . وأنت صنعتَ منه شراباً شيطانياً ، لن يكون ذلك لخيرِكَ . دَعْ هذا كله ... أتظنّ ذلك شراباً ؟ لا . بل هو نار ، نارٌ تحرقك .

(يأخذ شعلة من النار التي تحت القدر ويقرّبها من ماء الحياة السائل فيشتعل . يرتعب الجميع) .

ستار

الفصل الخامس

داخل كوخ خشبي

المشهد — ١ —

العامل وحده: يُرى قرناه وقدماه الظِّلْفاوان : القمحُ كثيرٌ هذا العام أيضاً ؛ ولا نعرف أين نضعه ، وفلاحُنا قد استساغ الكحول. قطَّرْنا مرةً أخرى ، لكن ماءَ الحياة ، هذه المرة ، في البرميلِ ، في مأمنٍ من الفضوليين . لم نعد نقدّم الشرابَ مجّاناً . ولسنا نقدّمه إلا للذين ننتظرُ خدماتٍ منهم . وهكذا فقد دعا ، بناءً على نصيحتي ، جميع مستغلّي البلدة القدماء إلى الشراب عنده اليوم ، لكي يتقسّموا الملكية بينه وبين جدّه ، بحيث لا يَبْقى لجدّه شيءٌ . واليوم أيضاً هو نهاية التزامي . لقد انقضتْ السنواتُ الثلاث . وكل شيء جاهز . يستطيع الرئيس أن يأتي .ليس عندي ما أَخْجلُ به أمامه .

المشهد — ٢ —

ابليس والعامل

ابليس : خارجاً من الأرض : حسناً ! ها قد انتهى الموعدُ المضروب. هل استَحْققت لقمة الخبز ؟وعدتكَ أني سآتي بنفسي . هل صنعتَ شيئاً من فلاّحكَ ؟

العامل : بالطبع . وستحكمُ أنتَ بنفسك . سوف يجتمعون هنا بعد قليل ، فاختبىءْ في الفرن ولاحظْ ما سيجري . سوف تُسَرُّ .

ابليس ، ينسلّ الى الفرن : سوفَ نرى .

المشهد — ٣ —

« العامل وإبليس . الفلاح يصحبه أربعهُ شيوخ . تتبعه امرأتُه . يجلس الرجال حول المائدة . ترتّب المرأةُ الصحون وتضع على المائدة طبقاً من العصير المجمد وصحناً من الفطائر المحشوّة . يتبادل الشيوخ والعامل التحيّات » .

الشيخ الأول : حسناً ! وهل صنعْتَ هذه السنة أيضاً شيئاً من شرابك ؟

العامل : أجل ، كمية لا بأس بها . ولمَ نَدَعَ القمح يضيع ؟

الشيخ الثاني : وهل نجح الشراب ؟

العامل : هو خيرٌ من السنة الفائتة .

الشيخ الثاني : وأين تعلّمتَ ؟ . . .

العامل : بالسفر نتعلّم كثيراً من الأشياء .

الشيخ الثالث : صحيح ، صحيح ! أوه ! إنه يعرف كثيراً من الأشياء .

الفلاح : اشربوا .

(تحمل المرأةُ ابريقاً وتصبّ لهم ليشربوا) .

المرأة : على صحتكم ، يا ضيوفنا ! . . .

الشيخ الأول ، يشرب : على صحتك ! . . . آه ! هذا لذيذ . . . هو يُليِّن المفاصل . . . شراب رائع ! . . .

(يردد الشيوخ بالتتالي الجواب نفسه . يُظهر إبليس رأسه من فتحة الفرن . يأتي العامل ليقف بجنبه) .

العامل لإبليس : تأمّلْ الآن ما سيَجْري . عرقلةٌ ماهرةٌ لتلك المرأة الساذجة ستَقْلبُ لها كأسها . . . لم يكن يأسف قديماً على خبزه ، فاسمَعْ ما سيقوله الآن من أجل كأسٍ من ماء الحياة .

الفلاح : يا امرأة ، هلا صببتِ . . . جولةً أخرى . . . للاشبين هناك ، ثم للعم ميشيل .

(تدور المرأةُ حول الطاولة وهي تصبّ الشراب لكل واحد منهم . يُعرقلها العامل فتتعثّر فتكبّ شرابَ كأسها) .

المرأة : آه ! يا إلهي ! لقد أوْقعْتُ . . . لكن لماذا تنحشرُ أنتَ يا شيطان بين ساقيّ .

الفلاح ، هائجاً على امرأته : آه ! يا امرأة الشيطان الملعونة! إنها خرقاء كالكَتْهاء وتسمح لنفسها باتّهام الآخرين . أيّ كنزٍ أرَقْتِه على الأرض ! . . .

المرأة : لم أفعل ذلك عمداً .

الفلاح : أرجو ذلك . . . خذي حذرَك ، ان نهضتُ فسأُعلّمك

كيف تكبين ماءَ حياتي . (للعامل) وأنتَ ، أيضاً ، لم تدورُ حولَ المائدة ، أغربْ عني إلى الشيطان ! .

(تصب المرأة الشرابَ للشرْب مرةً أخرى) .

العامل مقترباً من الفرن ، لإبليس : أرأيتَ ؟ قديماً كان فقدانُ كسرة الخبز الوحيدة لا يدعوه إلى الأسف ، أما اليوم فمن أجل كأس حقيرةٍ من ماء الحياة يوشك أن يضرب امرأته ويرسل بي إلى الشيطان . . . إليكَ .

ابليس : جيّد . اهنئكَ .

العامل : واصبِرْ قليلاً . فسوف تُهنئني ، عند نهاية الزجاجة . ها هُمْ قد أخذوا يقولون الكلامَ اللطيف والمعسول ؛ وعمّا قريبٍ يأتي التملقُ ، وسوف تستمع حينئذ إلى حيل هذه الثعالب القديمة .

الفلاح : حسناً ! أيها الشيوخ المحترمون ، ما الذي قررتموه بشأني ؟ إن جدّي الذي كان يعيش معنا والذي كنتُ أطعمُه ، قد عاد إلى بيت عمّي . وهو يطلب حصةً من أرضي ليُعطيها ابنَه . . . أعلم أنكم ستسوّون هذه القضية أحسن تسوية . فأنتم رجالٌ أذكياء . آه ! يا إلهي ! لولاكم ، لما كنا سوى جسم بلا رأس . . . لا شبيه لكم في القرية . إيفان فيدوتتش ، مثلاً رجلٌ من الطراز الأول . . . كل الناس يقولون ذلك . . . أما أنا ، فاذا شئتَ أن أكلّمك بصراحة ، يا ايفان فيدوتتش ، قلتُ لك : إنني أُضمر

لك من الحب أكثر مما أضمر لأبي ولأمي . . . الأمر هكذا .
وميشيل ستيبانيتش . . . هذا الصديق القديم . . .

الشيخ الأول ، للفلاح : إن الحديث مع الرجل الطيب فَرَحٌ للقلب ، وغنىً للعقل . . . وأنتَ ، أنت رجلٌ طيب . والحقّ أنك أنت أيضاً لا مثيلَ لكَ .

الشيخ الثاني : أنتَ ذكي ومحبوب . ولذلك أحبّكَ .

الفلاح الثالث : إني أحمل لك الكثير من الحب حتى إن الكلمات تُعْوزني للتعبير عنه . قبل قليل كنتُ أقول ذلك لامرأتي .

الشيخ الرابع : أنتَ صديقٌ ، صديق حقيقي !

العامل لابليس،وهو يدفعه: أرأيتَ كيف يكذبون . إذا أداروا ظهورهم أوْسَعَ كل واحدٍ جارة شتماً . . . لكنْ انظر إليهم ، إنهم كالثعالب التي تُحرّك أذنابها . هذا من تأثير شرابي .

ابليس : شرابٌ جيد ! شرابٌ ممتاز ! . . . إذا بدؤوا يكذبون على هذا النحو فهم جميعاً لنا . مرحى ، أهنّئك .

العامل : انتظرْ حتى يشربوا زجاجةً ثانية ، وسترى ما الذي يكون .

المرأة ، تحمل ماء الحياة أيضاً : هيّا ، اشربوا . على صحّتكم !

الشيخ الأول : لعلّنا قد أكثرنا ؟ . . . على صحتك . (يشرب) من الممتع أن يشرب المرء مع شَرْبٍ كرام .

الشيخ الثاني : لا سبيل إلى الرفض . . . على صحتكما : السيد والسيدة !

الشيخ الثالث : يا أصدقائي ، أشربُ على صحتكم . . .

الشيخ الرابع : آه ! ما ألذّ هذه الجعة ! . . . هيّا ، سنسوّي الأمرَ كله . . . أريد ذلك .

الشيخ الأول : تريدُ ذلك ! لستَ أنتَ الذي يأمرَ هنا ، وإنما نحن القدماء .

الشيخ الرابع : آه ! نعم . أنتم أقْدمُ ، لكنكم أغبى أيضاً . أغربْ من حيثُ أتيتُ .

الشيخ الثاني : مهلاً ، لمَ تَشْتُمُ الناس ، أنتَ ، يا غبي !

الشيخ الثالث : الحقُ معه ، على كل حال . لم يُقمْ صاحبُ البيت مأدبته من أجل سواد عيوننا . يريد أن نسوّي له شؤونه الصغيرة . . . يمكننا أن نفعل ذلك له . . . لكنْ . . . يجب أن يَسْقينا . . . أليس صحيحاً ؟ . . . ثم . . . يجب أن تُبدي احترامك ، كما تعلم ؟ . . . لأننا نحن ... الناسُ يَسْتخفّون بنا . . . أما أنت . . . فأنت بحاجة إلينا ثم إنك أنت . . . لستَ سوى خنزير . . .

الفلاح : احك عن نفسك . مالك تصرخ ؟ رأينا الكثير من أمثالك ، كما تعلم . امضوا ، أنتم جميعاً لا تصلحون إلا للأكل .

الشيخ الأول : كفاك خبثاً ، أنت ، أتسمع ؟ . . . وإلا فرَكْتُ أنفك .

الفلاح : سنرى .

الشيخ الثاني : آه ! يا له من شخص قبيح ! . . انظرْ إليه ، ليأخذْه الشيطان ! . . . لا أريد حتى أن أتحدّث مع هذا الحيوان ! سأنصرف .

الفلاح ، ممسكاً به : مهلاً ، ابقَ .

الشيخ الثاني : دَعْني ، وإلا ضربتُك .

الفلاح : لا ، لن أُرخيكَ . ليس لك الحق . . .

الشيخ الثاني : خُذْ ، هذا هو حقّي .

(يضربه)

الفلاح : ساعدوني ، أنتم الآخرون !

(تدافع عام . الفلاح والشيوخ الأربعة يتكلّمون معاً) .

العامل ، لإبليس : حسناً ! هل رأيتَ ؟ أليس دمُ الذئب هو الذي أخذ يجري في عروقهم ؟ نعم ، ها هم جميعاً شريرون كالذئاب .

ابليس : شرابٌ ممتاز ! تهانيّ .

العامل : انتظرْ ، انتظرْ ، حتى يُفرْغوا زجاجتهم الثالثة . سترى مفاجآت أيضاً .

ستار

الفصل السادس

« شارع في القرية . إلى اليمين ، عجائز جالسات على جسور خشبية مع جَدّ الفلاح . في وسط المسرح نساء وبنات وفتيان يعقدون حلقات ويرقصون ويغنّون . ومن كوخٍ خشبي تصل أصوات وضوضاء صادرة عن سُكارى ؛ يخرج أحدُهم وهو يصرخ بصوتٍ مخمور . الفلاحُ الذي يخرج وراءه يجرّه إلى الكوخ الخشبي .

المشهد — ١ —

الشيخ ، وحده : آه ! أيّةُ خطيئة هذه ، أية خطيئة هذه ! ماذا يلزمهم غير هذا ! أيّ شيء أمتع ، في يوم العيد ، من أن نستريح من عمل الحقول ، وأن نتزيّن بعض الشيء ، وأن نُعد أدواتنا ، ثم أن نجلس في البيت لنتذوّق مع الأسرة فرحة الاستراحة ، أو أن نذهب للنزهة في الشارع ونتحدث عن مصالح القرية ؟ هل يمكن أن يتمنى الإنسان خيراً من ذلك ؟ إذا كنّا شباباً فهناك حلقات الرقص . وها هم يلهون ما أجمل لهوهم ! يسرّ الناظرين ! هذا شريف ، ويبهج . (صرخات في الكوخ الخشبي) . أمّا ذاك فما هو ؟ عذابٌ للناس وفرح للشياطين . وكل هذا يأتي من الوفرة والغنى .

المشهد — ٢ —

« فتياتٌ وفتيان وشيوخ وفلاحون . رجال سكارى يخرجون وهم يترنّحون من الكوخ الخشبي . أشاعوا الفوضى ، وهم يصرحون في الحلقات وأخذوا يضايقون الفتيات » .

البنات : دَعْني ، عمّ كارب ، ماذا دهاك ؟

الفتيان : هيّا إلى الشارع الثاني . لا نستطيع أن نلهو هنا بسلام .

(يخرجون جميعاً ما عدا السُكارى والجَدّ) .

يدنو الفلاح من الجد ويهزأ بحركاته منه : أتراك تقدّمْتَ ؟ . . .
سيَقْضي لي الشيوخُ القدماء بالحصة كاملةً . وهذا لكَ
خُذْ ... عضّ . أَعْطوني كل شيء ، ولم يتركوا لك شيئاً .
وهم هنا ليُخبروك بذلك .

الشيخ الأول : لأن فكري ، أنا ، مُرْهفٌ ، يميّز الحقيقة .

الشيخ الثاني : سأرفعُ صوتي فوق جميع الأصوات . أنا لا أخاف .

الشيخ الثالث : هذا الصديق ! هذا الصديق الوفيّ ! هذا الصديق الممتاز !

الشيخ الرابع : إلى الأمام أيها الكوخ ، إلى الأمام أيها الفرن ! لن يبقى للسيدة بيت ! عاش الفرح !

(يخرج الشيوخ متشابكين اثنين اثنين وهم يتعرّجون . يتّجه الفلاح إلى كوخه لكنه يتعثّر ويقع ويرسل همهمةً تذكّر بهمهمة الخنزير . ينهض الجدُّ والفلاحون ويتفرقون) .

المشهد — ٣ —

« إبليس والعامل يخرجان من الكوخ » .

العامل : هل رأيتَ ؟ دمُ الخنزير هو الذي يظهر الآن . لقد تحوّلوا من حيوانات متوحشّة إلى خنازير . (يشير إلى الفلاح) .

انظرْ إلى هذا الخنزير القذر الذي يتمرغ في الطين وهو يهمهم .

ابليس : هيّا ، ستكون لك حصتُكَ أثناء التوزيع . كانوا ثعالب في أول الأمر ، ثم ذئاباً ، ثم خنازير ، كانوا حقاً ذلك كلّه . رائعٌ شرابُك ! علّمْني كيف حضّرْتَهُ . لا بدّ أنك أدْخلت فيه دم الثعلب والذئب والخنزير ؟

العامل : إطلاقاً ، لا ، وإنما وفّرتُ لهذا الرجل محاصيل تتجاوز حاجاته . فعندما كان يَجنْي كمية من الحبوب لا تكاد تكفيه ، كان يستطيع أن يستغني عن الخبز دون أن يتذمّر . أما عندما جاءه من القمح ما لا يعلمُ كيف يفعل به ، تحرّكَ فيه دمُ الثعلب والذئب والخنزير . هذا الدم كان فيه منذ الأزل ، لكن لم يملك إمكانَ الظهور

ابليس : يا صديقي الجسور ، لقد استحققْتَ خبزتك . ما عليهم الآن إلا أن يشربوا ماء الحياة وسيظلّون في قبضتنا إلى الأبد .

ستار